الإستظهار والتجربة فى الثقافة العربية

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

التعليم الاستظهارى هو التعليم عن طريق الحفظ وحشو الذاكرة بالمعلومات والمعارف ، وادخار مواد التعليم فى الحافظة . اما التعليم التجريبى فهو الذى تنحى فيه الذاكرة قدر الامكان ، وتطبق الخبرات والتجارب العملية والمشاهدة العيانية ، وذلك عن طريق تجلى العلم فى العمل ..

وقد مر كل من التعليمين بمراحل كثيرة ، ولقى كل منهما من المناصرة والمعارضة ما انتهى آخر الأمر الى الأوضاع الحديثة التى يجرى العمل عليها فى أغلب المدارس المتطورة مع أحدث مقتضيات الأصول التربوية السليمة.

ولاشك ان هناك بعض المواد الدراسية والمعارف التى لايغنى فيها الا الحفظ المطلق – مع الفهم والادراك طبعا لما يحفظ – كالنصوص الأدبية من الشعر والنثر ، وكالنصوص من الكتب المقدسة التى يهتم أهل الأديان باستظهار الصغار والتلاميذ لها عن ظهر قلب ، حتى ولو لم يعوها أو يدركوا معانيها ، أو يتذوقوا البلاغة الفنية فى أساليبها . أما المواد التى كالطبيعة والكيمياء وما سواهما من العلوم التجريبية فتحتاج الى الاختبار والتدريب العملى ، أكثر مما تحتاج الى الحفظ والاستظهار وترداد العبارات والقوانين بلا فهم ولا أدراك .

وقد لوحظ أن الأمم القديمة – على وجه العموم – كانت تعنى فى التعليم بالحفظ المكرر المؤكد وأن طالب العلم كان يعتمد على الحافظة وحشو الذهن بالمعلومات أكثر مما يعنى بالتجربة والعمل والمشاهدة – ولم تسلم من ذلك أمة من أمم الشرق والغرب على السواء .

وقد بلغت عناية التربية الاسلامية العربية بالاستظهار والحفظ حدا لفت أنظار المؤرخين . وظهر بين علماء المسلمين جماعة اشتهروا بندرة الحفظ ، وغرائب الاستظهار. ولهم فى ذلك روايات وأخبار تحكى وتدهش .. ألم يحدثنا المؤرخ ابن خلكان فى كتابه « وفيات الأعيان » أن الامام أحمد بن حنبل كان يحفظ عن ظهر قلب ألف الف حديث من أحاديث الرسول عليه السلام وكثيرا ما كان يقترن حفظ متون

---

*مجلة الرسالة ، (القاهرة) وزارة الثقافة والارشاد القومى، العدد ١٠٢٠، أول اغسطس ١٩٦٣، ص ص١٩-٢٢

الأحاديث مع اسنادها ورواتها ، لا يخطىء الحافظ – فى ذلك ، ولايخلط بين متن وإسناد، ولايدخل سند حديث فى سند حديث أخر . وهذا هو الامام البخارى صاحب الصحيح المشهور فى الحديث ، فقد ذكروا أنه كان يحفظ في سن الصبا مائة الف من صحيح الأحاديث ، ويحفظ ضعف هذا القدر من الأحاديث الموضوعة والمكذوبة .

واذا كان عدد الأحاديث التى يقال ان هؤلاء الحفاظ الكبار قد حفظوها يختلف بحسب اختلاف الروايات ، فانه مما لاشك فيه أن قدرا عظيما جدا من الأحاديث كان يحفظها الحافظ ، ويستحضرها فى ذهنه ، ويستشهد بنصوصها للاحتجاج بها فى المسائل العلمية والفتاوى الفقهية المختلفة .

وهناك عامل دينى قوى لايجوز اغفاله ونحن نتحدث عن الاستظهار فى التربية الاسلامية ، فهناك القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف . وقد أنزل الله القرآن وضمن له البقاء والحفظ بقوله تعالى : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) . وضمان حفظ الله للقرآن يقتضى الايحاء الى المسلمين بحفظه فى الصدور .

ومن هنا لم تكف حركة كتابة القرآن فى المصاحف بعد أن استحر القتل بالقراء فى بعض الحروب والغزوات ، فعمد المسلمون الى حفظ القرآن وأقبلوا عليه يتدارسونه ويحفظونه عن ظهر قلب ، ويعلمونه أولادهم الصغار فى سن مبكرة ، قبل أن يستكمل وعيهم وادراكهم وتفطنهم للمعانى الجميلة العميقة التى يشتمل عليها كتاب الله .

ولقد أوصى العلماء والمفسرون والفقهاء بأن تكون قراءة القرآن وحفظه مقرونة بالفهم للآيات . والتفكير والتدبير فى مراميها . فلا يكون الحفظ ترددا لجمل غير مفهومة ، بل يكون مؤسسا على الفهم والتدبر .

وفرق بعض العلماء بين قراءة القرآن وتلاوته ، (فالقراءة تكون لرياضة الألسن ، وتقويم الألفاظ ، ويستحب الأخذ به على المتعلمين ، والترتيل والتلاوة يكونان للتدبر والتفكر والاستنباط)

ومن هنا تظهر عناية العلماء المسلمين بعنصر « الفهم » لما يقرأ ويحفظ . ولكنهم اختلفوا فى الصبى الذى يحفظ القرآن فى بيته أو فى الكتاب ، كيف يستطيع إدراك معانى القرآن وما يحتويه من أوامر ونواه ، ومن وعد ووعيد ، ومن دعاء واستغفار ، ومن أدلة على وجود الله وصفاته ، وهى كلها من الأمور التى تعلو على مستوى الصبى ، وتتسامى على أدراكه الصغير المحدود. ولهذا لم يجد الامام أبو بكر بن العربى حرجا فى الدعوة الى تأخير حفظ الصبى للقرآن الى سن متأخرة ، حتى يستقيم له قدر من الادراك يعينه على فهمه . وأعجب مؤرخنا عبد الرحمن بن خلدون بهذه الفكرة فوافق عليها .. وان كان خضع آخر الأمر للتقاليد المتبعة ، فأوصى مع العرف بالبدء فى تعليم القرآن ، أملا فى أن يجىء الفهم بعد ذلك فى مرحلة تالية للحفظ المجرد.

وقد بلغ من حرص المسلمين على الحفظ والاستظهار للعلوم والمعارف أنهم كانوا يجعلون الحفظ فى الصدور غناء ينفع عندما يفقد الكتاب أو يمحى سطوره . ولوفق الدين البغدادى عبارة مأثورة فى أهمية «الحفظ» يقول فيها:(اذا قرأت كتابا فاحرص على أن تستظهر وتملك معناه. وتوهم أن الكتاب قد عدم، وانك مستغن عنه لاتحزن بفقده).

وسرت عدوى الحفظ والاستظهار للمادة العلمية من النصوص الدينية الى النصوص الأدبية كذلك .

فنجد رجالا مثل بديع الزمان الهمذانى ، والخوارزمى ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، والشاعر أبى تمام وغيرهم يتباهون بحفظ أقدار هائلة من أشعار العرب، حتى أن وزيرا مشهورا يشترط لمن يدخل عليه أن يكون حافظا لآلاف من أبيات الشعر، فيسأله الحافظ الراوية المتحدى : أهذا القدر من شعر الرجال أم النساء ؟ .

وقد وضع بعض المسلمين « معينات » تعين على الحفظ وقوة الاستظهار ، ويشغل بعضهم نفسه باستنباط هذه الوسائل أو تلك ، حتى لقد راينا الشيخ برهان الاسلام فى كتابه المخطوط المعنون « تعليم المتعلمين على الكمال » يلخص بعض « وصفات » لتقوية الذاكرة ، منها وصفات صحية ، لما بين الصحة الجسمية والصحة العقلية من ارتباط ، ومنها وصفات دينية روحية خلقية . فمن الوصفات الصحية : الاقلال من الطعام ، والبعد عن امتلاء المعدة وعن كل ما يسبب البلغم ، ونظافة الأسنان ، وأكل الزبيب الأحمر كل يوم على الريق ، وشرب العسل . ومن الوصفات الروحية النفسية : البعد عن المعاصى وعن الهموم والأحزان .

اما الهموم فلأنها تؤثر فى النفس والبدن كما قال المتنبى :

والهم يخترم الجسيم نحافة ويشيب ناحية الصبى ويهرم

وأما المعاصى فقد نسبوا الى الامام الشافعى شكواه من ضعف الحافظة يوما ووصفه العلاج بقوله :

شكوت الى وكيع سوء حفظى فأرشدنى الى ترك المعاصى

وأرشدنى بأن العلم نور ونور الله لايهدى لعاصى

والعامل الدينى فى الاهتمام بقوة الحفظ والاستظهار مضافا اليه العامل الأدبى يقويهما اعتبار اجتماعى آخر أملته الظروف الاجتماعية عند العرب،فقد كان شيوع الأمية فى الجزيرة العربية عاملا من عوامل الاعتماد على الذاكرة وقوة الحافظة . فأن فقدان الأثر المكتوب فى كتاب يجعل حفظه فى الصدر شيئا ضروريا ، ومن هنا جاء الاهتمام بالرواية والرواة ، ومن هنا أيضا وجدنا عصرا من عصور الرواية والحفظ والتدوين ، حتى كان هؤلاء الرواة الحفاظ موضع التقرب والحظوة من الخلفاء والأمراء والولاة.

على أن من الحق والانصاف أن « الحفظ » وحده لم يكن عاملا فعالا فى استيعاب المادة العلمية ، فقد كان « الفهم » ضروريا بجانبها كما سبق القول . فان من الظلم لأصول التربية الثقافية والمدرسية فى الاسلام أن نتهمها دائما بالاعتماد على « الاستظهار » والحفظ وحده . فأن العقلية العربية الاسلامية لم تغفل قيمة الفكر والتدبر والفهم من حسابها . وكيف يكون ذلك وفى القرآن الكريم آيات تحث على التفكر والنظر والتدبر . فالتفكر والفهم غاية من غايات التربية الاسلامية . وأول آية نزلت من القرآن تحض على القراءة ، ثم تنبه الى مافى عجائب صنع الله . وهذا التنبيه هو مثار للتفكير ، لا الأخذ بالقضايا المسلمة .

وهذه الآية يقول : (أقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق) فالقراءة وحدها لا تكفى ، وانما يصاحبها التفات الى عجائب الخلق .

ومن حسن حظ الفكر الاسلامى ان بعض علماء الاسلام نظروا الى الحفظ على انه وسيلة فقط للتحصيل ، لاغاية ينتهى اليها الطلب . ولحاجى خليفة صاحب كتاب « كشف الظنون » كلام فى هذا يقول فيه : (ان من كانت عنايته بالحفظ اكثر من عنايته الى التحصيل .والملكة لايحصل على طائل من ملكة التصرف فى العلم . ولذلك نرى من حصل الحفظ لايحسن شيئا من الفن ، وتجد ملكة قاصرة فى عمله ان فاوض او ناظر . وإنما المقصود هو ملكة الاستخراج والاستنباط وسرعة الانتقال من الدوال الى المدلولات، وان انضم اليها ملكة الاستحضار فنعم المطلوب).

وحذر بعض علماء المسلمين ومعلميهم من كتابة شئ بغير « فهم » . وفى هذا الشأن يقول الشيخ برهان الاسلام فى كتابه ناصحا المتعلم : (وعليه ان لا يكتب شيئا لايفهمه ، لأن ذلك يورث كلال الطبع ، ويذهب الفطنة . وينبغى له أن يجتهد فى « الفهم » من الاستاذ ، ويكثر من التأمل والتفكير).

ومن أدباء أمتنا العربية من نستطيع بحق أن نعده فى مقدمة أنصار المذهب التدريبى العملى ، على الرغم مما يحيط بالأديب من ملابسات الحفظ والاستظهار .

فعندنا « الجاحظ » الذى اتهمه المفكر الفرنسى رينان بأنه كبقية علماء العرب والاسلام فى الاعتماد على الحفظ لاعلى البحث ويكاد المؤرخ المفكر « كارا دى فو » يؤيد الفيلسوف رينان فى هذا الاتهام بوصفه مؤلفات الجاحظ بأن الطابع الادبى هو الغالب عليها ، لا الطابع العلمى . وهذا كلام ننقضه من كلام الجاحظ نفسه ، ومن طريقته فى التأليف ، وخاصة فى كتابه « الحيوان » الذى يقول فى مقدمته : (وهذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم ، وتتشابه فيه العرب والعجم ، لأنه وان كان عربيا أعرابيا ، واسلاميا جماعيا ، فقد أخذ من طرف الفلسفة ، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، واشرك بين علم الكتاب والسنة ، وبين وجدان الحاسة واحساس الغريزة) . وذكر الحاسة هنا وفى

غير موضوع من كتاب الجاحظ يدل على اهتمامه بالتجربة والخبرة الحسية . وهو يميل دائما الى « المعاينة » ، ويقول عنها : (ليس شئ يشفيني الا المعاينة) . فهو لايعتمد على السماع والنقل والحفظ ، لكنه يعتمد على الرؤية التى هى سبيل من سبل البحث العلمى التجريبى . على انه كثيرا ما جمع بين الرؤية والتجربة . واستعانته بالحواس فى التحقيق مماثلة لاستعانة الفيلسوف « بيكون » بها فى القرن السادس عشر الميلادى . وقد سبق الجاحظ العربى المسلم الفيلسوف بيكون ببضعة قرون الى المناداة بطريقة التجربة والتدريب العملى ، فاستعان بالحواس ، وأوصى بعدم المغالاة فيها لأنها تخدع ، واستعان بالتجربة ، حتى ليزدحم كتابه « الحيوان » بمئات من التجارب التى أجراها هو بنفسه ، ليصل الى الحقيقة العامية المراد الوصول اليها .

ومن تجارب الجاحظ فى كتاب الحيوان قبضه على الحيوان بنفسه أو بغيره ، ليقف على حركته ، كقوله فى الأفاعى : (وفى الأفاعى من العجب أنها تذبح حتى يفرى منها كل ودج ، فتبقى أياما لاتموت . وأمرت الحاوى ، فقبض على خرزة عنقها ، فقلت له : أقبضها من الخرزة التى تليها قبضا رفيقا ، فما فتح بينها بقدر سم - أى ثقب - الابرة حتى بردت ميتة) وكذلك تجربته على بعض الحيوانات بدفنها فى بعض النبات ليعرف حركاتها ، كما فعل فى « الجعل » حين دفنه فى الورد فمات ، فلما أعيد الى الروث عادت اليه حركة الحياة من ساعته .. والأدق أن نقول انه عمل التجربة فى خنفساء لقرابة ما بين الاثنين .

وهكذا ترى الجاحظ الأديب ، عالما تجريبيا عمليا متطلعا الى المعرفة عن طريق الخبرة والتجربة ، فقد ذاق مثلا الشبوط ، ليعرف طعم احمه .. ولايكتفى بما يسمعه عن العقرب مثلا وعن حملها لعشرات الصغار من أولادها فى بطنها ، بل نراه يلجأ الى عقرب ، فيبعج بطنه بنفسه .

ويذكرنا ما فعله الجاحظ فى تاريخ المعرفة العربية بما فعله « رابليه » الفرنسى فى تاريخ التربية والتعليم فى القرن السادس عشر الميلادى ، أى بعد الجاحظ ببضعة قرون ، فقد دعا هذا المفكر الحر الى نبذ المذهب الجدلى الذى كان سائدا حينذاك ، والذى ناصره جماعة من أهل المماحكة والجدل أرادوا معرفة عالم الطبيعة - لامن العالم الواقعى نفسه - ولكن من خلال نظريات أرسطو ومعتقدات الكتب المقدسة . ولعل هؤلاء الجدليين كانوا متأثرين فى انعزالهم عن الخبرة والتجربة المادية الواقعية بموروثاتهم الدينية التى كانت تؤمن بأن العالم المادى ماهو الا دار فناء ، لاداعى لاجهاد النفس بدراستها .. فجاء رابليه وغير مفهوم النظر الى العالم الطبيعى .

لقد لقى الاستظهار والحفظ من غير تفكير ولاتجربة ولامعاينة مقاومة من مفكري العرب وغير العرب على السواء . وليس الغربيون فى هذا بأسبق منا ، ولا كانوا فى

التجربة بأعرق ولا أفضل .. فقد أثبت تاريخ التربية والثقافة والمدارس أن الغربيين كانوا غارقين فى لجة الاستظهار والحفظ عن ظهر قلب الى الحد الذى ازعج مفكريهم وجعلهم يتنبهون وينبهون الى الخطر المحدق . ومازالت الرسائل الممتعة التى كتبها المفكر الفرنسى « الفونس اسكيروس » فى كتابه : « التربية الاستقلالية » موضع الاعجاب حتى يومنا هذا. فهى لم تفقد جدتها ولا لذتها على الرغم من اتجاه المدارس كلها اليوم نحو المذهب التجريبى فى حدود امكانيات كل أمة واستعداداتها .

ومن مفاخر الذهنية الاسلامية أن الامام الشيخ محمد عبده هو أول من نبه الى قيمة كتاب أسكيروس فى التربية ، وأوصى بترجمته . واستجاب لذلك رجل من خيرة رجال القضاء فى مصر سنة ١٨٩٩ ، وهو وقت يواكب صيحات ايبل ، وليبمان ، وجوستاف لوبون للتحرر من طريقة الحفظ فى المدارس . ومن أجمل ما قاله الفونس اسكيروس فى معرض الموازنة بين الحفظ والتفكير لدى الأطفال قوله :(قد يسأل سائل : هل التفكير مما يتعلمه الطفل ؟ فأجيبه : هذا ما أعتقده . غير أنه ينبغى التمييز التام بين ما يتلقاه من غيره من الافكار ، وبين مايستنتجه هو منها بنظره الى الأشياء . ونحن فى تخاطبنا معه لانفعل شيئا سوى تأدية أفكارنا اليه على وجه التمام أو النقص ، مع أن الذى كان يجب علينا أن نصرف همتنا اليه هو ايقاظ ذهنه ، واستنباط أفكاره وآرائه . فأذهان من يعاشرون الكبار من الأطفال محشوة بجمل من الكلام لايفهمون منها فى معظم الأحيان إلا معانى فى غاية التشابه والالتباس .. وليس شحن أذهانهم بهذه الجمل مما ينمى فيهم قوى الادراك والفهم بحال من الأحوال ، ولكنه ابهاظ لها بما ليس من حقه أن يكون فيها).

ونحمد الله أن آراء مفكرينا العرب التجريبيين ، ومفكرى الغرب التجريبيين قد انتهت بالانسانية الى النتيجة التى تتمتع بها مدارسنا الحديثة من ايثار للخبرة والتجربة والمعانية على الحفظ والاستذكار .